قضايا نقدية في كتاب عيار الشعر لابن طباطبا(ت٣٢٢هـ)

شاعر وناقد وعالم حاذق ملم بالأدب ، ساعدته معرفته بالشعر وحضوره مجالس الادب والعلم على اكتساب فكر نقدي تبلور في اعماله ، ناهيك عن شغفه بالشعر له اشعار متناثرة في كتب الادب، ومنها كتاب معجم الادباء وكتاب تحفة العجائب وطرفة الغرائب، له كتب مهمة الى جانب كتاب عيار الشعر منها كتاب تهذيب الطبع وكتاب العروض وكتاب الشعر والشعراء والاخير ذكره ابن النديم ولم يصل الينا.

عمد ابن طباطبا الى تسمية كتابه (العيار) في محاولة منه لوضع مقاييس نقدية تقاس بها جودة الاشعار لبناء الحكم النقدي كما يرى د. جابر عصفور(مفهوم الشعر/٢٣)، وقد امتدح الكتاب من لدن باحثين كثر وذلك لتخصصه في علم الشعر وابتعاده عن المألوف من الكتب في ميدانه، فقد وصف الناقد احمد بدوي ابن طباطبا بالناقد الموضوعي الذي يرى للجمال وللقبح اسبابا(اسس النقد الادبي عند العرب/٤٤، كما وصف د. انس داود الكتاب بانه من النصوص الهامة التي شخصت موضوع بناء القصيدة والوحدة الفنية في النقد العربي(دراسات نقدية/ ١٨٤).

تكمن القيمة النقدية للكتاب في القضايا المهمة التي ناقشها والتي تمس صلب نقد الشعر وحده، ويتضمن بحث موضوعات مفهوم الشعر وادواته وبناء القصيدة وتفاضل الاشعار ومعاييرها والابيات المستحسنة والمستكرهة وموضوعات الالفاظ والمعاني وكل ما يتعلق بالجماليات من افانين البديع والعروض وغيرها، وبهذا تتضح فيه شمول النظرة الى الفن الشعري وهو ما سنراه في مبحث بناء القصيدة بشكل خاص، ومن القضايا المهمة التي تناولها الكتاب:

- مفهوم الشعر وادواته: من المعروف ان قضية حد الشعر ليست بالجديدة لاسيما وان الكتاب ألف في القرن الرابع الهجري، من هنا ظهر في تعريف ابن طباطبا للشعر اثر الرؤية النقدية التي قاربت الاكتمال في هذا الجانب، يقول:" الشعر كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم ، بما خص به من النظم الذي ان عدل به عن جهته مجته الاسماع وفسد على الذوق"العيار:٥، واشترط لنظم الشعر توافر الادوات الشعرية، لئلا يتكلف النظم ومنها التوسع في علم اللغة والبراعة في فهم الاعراب والرواية لفنون الاداب، والمعرفة بأيام العرب وانسابهم ومذاهب العرب في الشعر والتصرف في المعاني عندهم والتعريض والتصريح والاطالة والايجاز وحلاوة المطالع والمقاطع وتجنب الغث من اللغة وسخيف المعاني وبعيد التشبيهات والاوصاف ،حتى يكون الشعر كالسبيكة والوشي المنمنم وتسابق الفاظه معانيه وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه ....الخ ، وجعل كمال العقل هو جماع هذه الادوات .العيار:٦-٧

فهو اولا ميز الشعر عن النثر بالنظم، وجعل الطبع بديلا عن المعرفة بالعروض ودقائقه، بمعنى ان الشاعر المطبوع لا يحتاج تعلم الاعاريض، وفي تحديده للأدوات التي يحتاج الشاعر اليها ، فقد قدم اللغة والاعراب على ما سواها، وجعل عدة الشاعر نفسها التي حددها السابقون ومنهم ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة الذين اشترطوا الرواية والمعرفة

بأيام العرب وانسابهم ووقائعهم بما يدخل في ما اسموه مذاهب العرب في اشعارها، وهنا يتضح موقفه من القديم، فهو يجعله اساس المعرفة الشعرية ومنطلقا لكل من يريد ان يدخل هذا الميدان، وفي تفاصيل ادوات الشعر ما يحيل بشكل تام الى المذهب الشعري العربي القديم، ما يؤشرا موقفا مناصرا من القديم وان لم يصرح بذلك، وعلى هذا الاساس بنى ابواب كتابه الذي نحا به منحى تعليميا للشعراء ، وهو وان تعصب للقديم لكنه برر للمحدثين(اسماهم بالمولدين) محنتهم في عدم اللحاق بالسابقين بأن القدماء قد سبقوا الى معنى بديع ولفظ فصيح وحيلة لطيفة، مع التأكيد على تفاوت القدماء فيما قالوا وجنوح بعضهم الى الخطأ والاغراق في الوصف والافراط في التشبيه مما نبهت عليه العلماء بالشعر، وجعل البديع الباب الذي ينفذ منه المحدثون الى الاجادة، ولهذه الاسباب حذر من اظهار الشعر بنقصه وعيوبه وهو هنا يدخل الامر في باب الصنعة الذي سيرد ذكره.

- بناء القصيدة: وصف ابن طباطبا بأنه من اكثر القدماء احاطة ببناء القصيدة، ولم يكن اقدمهم، فقد سبقه ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء(فالشاعر المجيد من سلك هذه الاقسام وعدل بين هذه الاساليب ولم يطل فيمل ولم يوجز وفي النفوس ظمأ الى المزيد)الشعر والشعراء:٢٠، يقول ابن طباطبا:" إذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا و أعدّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه و القوافي التي توافقه و الوزن الذي يسلس القول عليه. فإذا اتّفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته و أعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر و ترتيب لفنون القول فيه، بل يعلّق كلّ بيت يتّفق له نظمه على (ما يمكن أن يكون من) تفاوت بينه و بين ما قبله. فإذا كملت له المعاني و كثرت الأبيات وفّق بينها بأبيات تكون نظاما لها و سلكا جامعا لما تشتّت منها. ثمّ يتأمّل ما قد أدّاه إليه طبعه و نتيجة فكرته فيستقصي انتقاده و يرمّ ما وهى منه و يبدّل بكلّ لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقيّة. و ان اتّفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني و اتّفق له معنى آخر مضادّ للمعنى الآخر-و كانت تلك القافية أوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الأوّل-نقلها إلى المعنى المختار الذي هو أحسن و أبطل ذلك البيت أو نقض بعضه و طلب لمعناه قافية تشاكله، ويكون كالنساج الحاذق الذي يفوف وشيه بأحسن التفويت ويسديه وينيره ولا يهلهل شيئاً منه فيشينه، وكالنقاش الرفيق الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه، ويشبع كل صبغ منها حتى يتضاعف حسنه في العيان، وكناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق، ولا يشين عقوده، بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها. وكذلك الشاعر إذا أسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي الفصيح لم يخلط به الحضري المولد، وإذا أتى بلفظة غريبة أتبعها أخواتها، وكذلك إذا سهل ألفاظه لم يخلط بها الألفاظ الوحشية النافرة الصعبة القيادة، ويقف على مراتب القول، والوصف في فن بعد فن، ويتعمد الصدق والوفق في تشبيهاته وحكاياته، ويحضر لبه عند كل مخاطبة ووصف، فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات، ويتوقى حطها عن مراتبها، وأن يخلطها بالعامة، كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجات الملوك. ويعد لكل معنى ما يليق به، ولكل طبقة ما يشاكلها، حتى تكون

الاستفادة من قوله في وضعه الكلام مواضعه أكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسجة وإبداع نظمه"العيار:٧

والنظر الى كلام ابن طباطبا الذي لخص رؤيته لموضوع بناء القصيدة يؤكد معاملته للقصيدة على انها صناعة ، او ما يسميه بكار عملية خلق صناعي(بناء القصيدة في النقد العربي القديم:٧٧)،فهو يطلب من الشعراء اختيار الالفاظ المؤتلفة مع بعضها المنسجمة مع موضوع القصيدة المحققة لشروط صحة اللغة، ولم يمانع استخدام الالفاظ البدوية الفصيحة ولا الحضرية المولدة ولا الغريبة شريطة عدم خلطها مع بعضها، واختيار المعاني المتسقة غير المتضادة، كما اشترط الصدق ومراعاة مرتب المخاطبين بما يحقق معيار (لكل مقام مقام) الذي سبق اليه الجاحظ في مباحثه، وكذلك فان نظراته تدور في اطار نظرية النظم فحديثه عن ائتلاف الالفاظ ومتانة البناء كالنسج المتين والنقش الرقيق والنظم الثمين للدر،هي اساسيات لتلك النظرية التي لا تعترف بقيمة اللفظة المفردة وتعول على السياق في بناء الصور الشعرية، وهو في ذكره لمراحل انشاء القصيدة يبين اهتمامه بالشكل على حساب المحتوى كما قد يبدو، لكنه حين يتناول مباحث المعنى والتشبيهات والاوصاف يعود الى الاهتمام بالمحتوى، وعاب عليه البعض اهماله لمفهوم الالهام ودوره في صناعة القصيدة(بكار :٧٩)، ومن الامور المهمة التي تندرج تحت موضوع بناء القصيدة تأكيده على مراحل نظمها وهي هنا: مرحلة كون القصيدة نثرا، ثم مرحلة الباسها الالفاظ التي تناسبها والقوافي التي توافقها(وهذا امر لم يتوسع فيه) والاوزان التي تناسبها، ثم ترتيب الابيات وفق مقاطع مترابطة يفضي بعضها الى بعض، واخيرا اعادة النظر بالقصيدة وتنقيحها من الالفاظ الغريبة والمعاني الدخيلة، وهنا تتضح الصنعة ودورها في بناء القصيدة، ان تأكيد ابن طباطبا على هذه النقاط لا يعيبه اتجاهه نحو الصنعة فالنقد حاله كحال الشعر ابن بيئته وظروفه، وهو حين اكد سابقا على موضوع عدم التسرع في اخراج الاشعار قبل مراجعتها لئلا تظهر بعيوبها على الناس انما استجاب لمعايير التلقي التي فرضت سطوتها على الشعراء ، في عصر كان المتلقي جزءا مهما من اجزاء العملية الشعرية، لاسيما وان القصائد كانت مدار تنافس بين الشعراء في مجالس الخلفاء والوزراء والقواد، التي شكلت حافزا مهما من حوافز الابداع الشعري وتطور القصيدة في ذلك العصر.

- وحدة القصيدة: وهو موضوع يرتبط ببناء القصيدة، وحاول فيه ابن طباطبا التأكيد على وحدة القصيدة رغم ما يعرف عن القصيدة العربية بتعدد موضوعاتها، وقد فطن النقاد العرب الاوائل الى هذه النقطة قبل ان يتطرق اليها المستشرقون بقرون طويلة، انطلاقا من فهمهم العميق لطبيعة النص الشعري العربي القديم من جهة وخصوصية البيئة التي نشأ وتطور فيها من جهة أخرى، وقد عالج موضوع وحدة القصيدة في مستويين، الاول جزئي يتعلق بتنسيق الكلمات داخل الابيات وحسن تجاور الابيات مع بعضها اعتمادا على رابط الصور المتلاحقة التي يرسمها الشعراء بلغة سليمة فلا يحشو فجواتها بما لا يلائم ويتفقد

المصاريع وتشاكلها فقد يحصل ان تتبادل المصاريع بين الابيات ، مستشهدا ببيتين مشهورين لا مريء القيس وهما قوله:

كأني لم اركب جـــــوادا للذة ولم اتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم اسبأ الزق الرويّ ولم اقلْ لخيلي كري كرة بعد اجفال

فلو وضع مصراع كل واحد منهما لكان اشكل وادخل لاستواء النسيج كما يرى، الثاني: كلي يتعلق بالنص وتناسب فصوله، وجعله بذلك يشبه فصول الرسائل في تماسكها وصواب تأليفها لتبدو القصيدة وكأنها افرغت افراغا واحدا، فوحدة القصيدة عنده تقوم على نوعين من الربط الداخلي والخارجي وهو ما رأى فيه احد النقاد معبرا عما يسمى حديثا ب(الوحدة العضوية) التي عبر عنها وان لم يسْمها، ولا يتعلق الامر بوحدة الموضوع بل وحدة النظام الداخلي للقصيدة وترابط اجزائها بدليل قوله(افرغت افراغا واحدا) وهي فكرة سبق اليها الاحظ ايضا في قوله المشهور(سبكت سبكا واحدا وافرغت افراغا واحدا فيجري على اللسان كما يجري على الدهان).

- الالفاظ والمعاني: لا يفصل ابن طباطبا بين الالفاظ والمعاني انطلاقا من رؤيته لمنظور القصيدة الكامل ، يقول: "من الأشعار أشعار محكمة متقنة الألفاظ حكيمة المعاني، عجيبة التأليف إذا نقضت وجعلت نثراً لم تبطل جودة معانيها، ولم تفقد جزالة ألفاظها. ومنها أشعار مموهة، مزخرفة عذبة، تروق الأسماع والأفهام إذا مرت صفحاً، فإذا حصلت وانتقدت بهرجت معانيها، وزيفت ألفاظها، ومجت حلاوتها، ولم يصلح نقضها لبناء يستأنف منه، فبعضها كالقصور المشيدة، والأبنية الوثيقة الباقية على مر الدهور، وبعضها كالخيام الموتدة التي تزعزعها الرياح، وتوهيها الأمطار، ويسرع إليها البلى، ويخشى عليها التقوض، وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض. وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه، وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه، وكم من صارم غضب قد انتضاه من وددت لو أنه انتضاه فهزه ثم لم يضرب به، وكم من جوهرة نفيسة قد شينت بقرينة لها بعيدة منها، فأفردت عن أخواتها المشاكلات لها، وكم من زائف وبهرج قد نفقا على نقادهما، ومن جيد نافق قد بهرج عند البصير بنقده فنفاه سهواً، وكم من زبر للمعاني في حشو الأشعار لا يحسن أن يطلبها غير العلماء بها، والصياقلة للسيوف المطبوعة منها، وكم من حكمة غريبة قد أزدريت لرثاثة كسوتها، ولو جليت في غير لباسها ذاك لكثر المشيرون إليها، وكم من سقيم من الشعر قد يئس طبيبه من برئه، عولج سقمه فعاودته سلامته، وكم من صحيح جني عليه فأرداه حينه، وليس يخلو ما أودعناه اختيارنا المسمى تهذيب الطبع من بناء إن لم يصلح لأن تسكن الأفهام في ظله لم يبطل أن ينتفع بنقضه، فبعض البناء يحتاج إليه" العيار: ١١، ومن قراءة النص اعلاه يتضح الى جانب نظرته الموحدة للنص ان تحقيق شرط الاجادة لا يتعلق باللفظ الفخم المزخرف ان لم يكن له

معنى يشاكله، والعكس صحيح فكم من معنى حسن شانه لفظ سيء، وعاد الى تحقيق اشتراطات النظم في عبارته: وكم من جوهرة نفيسة قد شينت بقرينة لها بعيدة منها وافردت عن اخواتها المشاكلات لها، فالمشاكلة بين الالفاظ احدى شروط جودة النظم.

- عيار الشعر: انفرد ابن طباطبا بمصطلح (عيار الشعر) الذي يرى انه يتحقق بالفهم الثاقب المرتبط بالحواس، فالعين تألف المنظر الحسن والانف يقبل المشم الطيب، والاذن تتشوف للصوت الخفيض الساكن، واليد تنعم بالملمس النعام والفهم يأنس بالكلام بالعدل والصواب، وتلك حال الشعر الجيد الذي تأنس به الحواس، وهو ما اسماه النقاد المحدثون ب(تراسل الحواس) في النصوص، يقول:" وللأشعار الحسنة على اختلافها مواقع لطيفة عند الفهم لا تحد كيفيتها: كمواقع الطعوم المركبة الخفية التركيب اللذيذة المذاق، وكالأراييح الفائحة المختلفة الطيب والنسيم، وكالنقوش الملونة التقاسيم والأصباغ، وكالإيقاع المطرب المختلف التأليف، وكالملامس اللذيذة الشهية الحس، فهي تلائمه إذا وردت عليه - أعني الأشعار الحسنة للفهم فيلتذها ويقبلها، ويرتشفها كارتشاف الصديان للبارد الزلال، لأن الحكمة غذاء الروح، فأنجع الأغذية ألطفها. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن من الشعر حكمة وقال عليه السلام: ما خرج من القلب وقع القلب، وما خرج من اللسان لم يتعد الآذان. فإذا صدق ورود القول نثراً ونظماً أثلج صدره. وقال بعض الفلاسفة: إن للنفس كلمات روحانية من جنس ذاتها. وجعل ذلك برهاناً على نفع الرقى ونجعها فيما تستعمل له، فإذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى، الحلو اللفظ، التام البيان، المعتدل الوزن، مازج الروح ولاءم الفهم، وكان أنفذ من نفث السحر، وأخفى دبيباً من الرقى، وأشد إطراباً من الغناء، فسل السخائم، وحلل العقد، وسخى الشحيح، وشجع الجبان، وكان كالخمر في لطف دبيبه وإلهائه، وهزه وإثارته. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحراً"العيار:٢٢ والسطران الاخيران في كلامه اعلاه يوضحان الانطباع الذي يتركه الشعر الجيد لدى السامعين بما يؤدي الى قلب الصورة المألوفة عندهم، فيمارس الشعراء وظيفة الاقناع مثلهم مثل الخطباء.

هذه اهم القضايا التي تناولها ابن طباطبا في كتابه، وهناك موضوعات كثيرة تدخل في صلب نقد الشعر اتبعها بتطبيقات كثيرة في التشبيهات وضروبها والاوصاف وسنن العرب في معانيها وقوافيها والابيات المستكرهة الالفاظ والمغرقة في معانيها وبالمقابل اورد نصوصا كثيرة للأشعار المحكمة الحسنة التي رآى انها حققت اكتمال اشتراطات الاجادة لفظا ومعنى وقافية ونسجا، كل تلك الابواب والتطبيقات قصر استشهاداته لها بالأشعار القديمة فقط، مؤكدا منهجه الذي تكلمنا عنه في مطلع كلامنا.

مصادر المحاضرة:

١- عيار الشعر – ابو الحسن ابن طباطبا العلوي(ت٣٢٢هـ)- تحقيق د. عبد العزيز بن ناصر المانع.
٢- الشعر والشعراء- ابن قتيبة طبعات دار المعارف بتحقيق محمود محمد شاكر
٣- مفهوم الشعر- د. جابر عصفور
٤- اسس النقد الادبي عند العرب-د. احمد بدوي.
٥- دراسات نقدية- د. انس داود
٦- بناء القصيدة في النقد العربي القديم- د. يوسف حسين بكار